شخصيات علمية بغدامس 1053 ـ 1353 هـ

بشير قاسم يوشع
مركز دراسة جهاد الليبيين فرع غدامس

لقد أنعم الله تعالى على جماهيريتنا الحبيبة بالاسلام في وقت مبكر، اذ بدأت طلائع الفتح الاسلامي تصل اليها سنة 21 أو 22 هـ 642م، بهذا الانتماء السريع أتيحت لها فرصة السبق والسير في الطريق الذي عبده أولئك الفاتحين الأفذاذ، والمشاركة الفعلية فيما أتى من أجله الاسلام، نشر العلم وهداية الشعوب الى الصراط المستقيم، فالتحموا مع بنو عمومتهم الوافدين ليواصلوا الزحف المقدس الى الأمام حاملين معهم هذه الرسالة الخالدة الى بقية الشمال الافريقي، ثم السير الى الشاطىء الآخر ليحرروا شعوبه المقهورة، ويخرجوهم من ظلمات الشرك والضلال، متتبعين جحافل البزنطيين وحلفائهم بعد أن قلعوا جذورهم وأظافرهم من المغرب العربي كافة والى الأبد، حتى أرسوا قواعد الاسلام وأعلوا مناره في تلك الديار، وشيدوا معالم وحضارة لا عهد لمثلها في أرض الأندلس قبل المد الاسلامي العربي.

ولقد حدثنا التاريخ كثيرا عن هذه المسيرة الكبرى التي انطلقت من المدينة المنورة ثم من دمشق الى الأندلس، وسجل لنا كل كبيرة وصغيرة عن نهضة الأقطار وعلمائها ومدارسها، ومساجدها، وحروبها، وانتصاراتها، وانتكاساتها... ولكنه دائما يركز على العواصم الكبرى أو ما قد يتواجد بين تلك العواصم وطرقها من البلدان، وقل أن يشفي غليلنا بالحديث عن الواحات والقرى النائية المتناثرة جنوبا، والضاربة في الصحراء المتأخمة. ولئن حظيت المراكز الرئيسية بالحديث والدراسة أكثر من غيرها بحكم موقعها وحوادثها، فتبعية التأخر والاهمال الواقع على غيرها تقع في المقام الأول على أبنائها، خصوصا منها التي عرف ماضيها بالحركة والثروة، وأفرزت بعض الفقهاء في وقت مبكر كغدامس، واني بهذا المقال القصير سأحاول تقديم نزر من القليل الذي حظيت به هذه المدينة التي لم يوليها أهلها قديما وحديثا ما تستحقه في هذا السبيل، مترجما لبعض من عرفنا من رجالها بدءاً من حوالي 1053 حتى 1353هـ.

وبعد أن اعتنقت غدامس الاسلام[1] وجد لها ذكر في مجال العلم مبكرا، اذ جاء في كتاب السير للشماخي أن البعثة العلمية المتكونة من أربعة طلبة من شمال أفريقيا والمتوجهة الى البصرة للدراسة في أوائل القرن الثاني الهجري كان من ضمنهم اسماعيل ابن ذرار الغدامسي [2]، ولعلنا نستطيع الربط بين عصر هذا الطالب الذي يرجح أنه عاش حتى أوائل القرن الثالث وله ذكر في المجال العلمي، اذ نجد التاريخ حفظ لنا في هذا القرن أيضا علما له باعه الطويل بين الفقهاء ذكره صاحب رياض النفوس في فقهاء مدينة القيروان[3] ثم لانجد رغم الآثار العلمية المبعثرة في غدامس ما يمكن الارتكاز عليه حتى سنة 1067 بعثورنا على أوراق من مخطوط ألفه شيخ من هذا البلد [4]، الى أن كان عصر الشيخ عبد الله أبوبكر الغدامسي المولود في تنبكتو سنة 1035هـ اذ حفظ لنا من عوادي الزمان مخطوط مجهول المؤلف[5]. يحتوي على تراجم لهذا الشيخ وأبنائه وبعض شيوخهم وطلبتهم[6]، ووقفة قصيرة مع هذا المخطوط يتضح بجلاء أن العصر الذي كتب فيه وما قبله من عصور لهي عصور ذهبية غنية بالعلم والعلماء، ومما يلفت الانتباه أنه بعد هذه الحلقة المتلألئة نجد نهضة علمية متواصلة لم تنقطع

حتى عصرنا هذا، وان كانت تخفت أحيانا وتظهر أحيانا أخرى، فهل هي نهضة مفاجئة لم تكن لها جذور متصلة بالقرن الثالث الهجري، عصر العباس بن محمد الصواف؟ أم أن علماء تلك القرون لم يحفظ لنا التاريخ ذكراهم، ولم يجدوا من يكتب عنهم، ثم أين آثارهم العلمية، هل هي أيضا درست في جملة ما درس؟، ان هذه الأسئلة وغيرها تنتظر الجواب الشافي وسوف لن تجده بسهولة، تصور لو ضاع مخطوط تذكير الناس، هل عرفنا الشيخ عبد الله أبو بكر وأبنائه ومشائخه وطلبته، لو لم يسخر الله الشيخ الشماخي رحمه الله لكتابة قليل من الأسطر عن البعثة العلمية المذكورة، هل عرفنا عنها شيئا، أبو الفضل الصواف لو لم يهاجر آخر عمره الى المنستير، هل ذكره صاحب رياض النفوس، انه عطاء ومنع في آن واحد، ضدان اجتمعا في هذه المدينة، الا أنني ارجح وهو الأقرب للصواب أن كثيرا من مخطوطات وجدت على مر العصور، ولكن الاهمال والقصور التي يعقبها كفيل بالقضاء عليها، تصور ان تذكير الناس نفسه لا يوجد منه سوى نسختين[7] انها نوع من السلبية سمحت للتاريخ أن يبتلع الكثير من أعلام الجماهيرية، فكم من عالم نابغة كان يشار اليه بالبنان، ثم لا نجد له أي ذكر أو أثر، سوى تعليق في مخطوط، أو توقيعا في حجة رسمية أو خطا جميلا في مصحف. هذا محمد بن عمر الذي لانعرف عنه سوى روايات تكاد تنتهي إلى لا شيء من كثرة التداول والتحريف لو لم يمن الله علينا بحفظ أحد مؤلفاته المتعددة[8] ثم ابن يونس الكبير وابنه وابن يونس الصغير، وقبلهما جدهما الأعلى الفقيه محمد بن عبد الله بن يونس، الشيخ محمد الخضراوي بن داوود الدرجي خريج الأزهر وقاضي غدامس، لو لم يعثر مركز جهاد الليبيين على اجازته الازهرية لما عرفنا أنه من طلابها، وأخيرا الشيخ حسن بن عمر السيناوني المولود في سيناون وخريج الزيتونة ومشائخها الكبار، هل وجدنا من أشار اليه ولو بسطر واحد، اذا استثنينا دليل المؤلفين العرب الليبيين الذين لم يرد به سوى اسمه وعنوانه وأحد مؤلفاته المتعددة، والتعابير الليبية للشيخ علي المصراتي قد اشار اليه أيضا انه الجذب التأريخي المتأصل الـ فينا وليس تواضعا كما يحاول البعض أن يفهم اذ لا يكون الاهمال تواضعا ولا التفريط محمودا. وبهذه الكلمة القصيرة سأقدم ترجمة موجزة عن بعض من أهملهم التاريخ بهذا البلد حتى يلم جيلنا الحاضر ومن يلونهم ببعض مآثر هؤلاء ليكونوا لهم نبراسا وقدوة في درب حياتهم العلمية. وقبل الشروع فيما نحن بصدده يحسن بنا أن نوجز في قليل من الأسطر المعاهد العلمية التي تلقى بها هؤلاء علومهم التي أتاحت لهم فيما بعد مواصلة الدراسة والتحصيل.

ان غدامس التي تعتبر من المدن القلاعية تضم سبعة تجمعات يطلقون عليها الشوارع السبعة، وهذه تتجمع في اتحادين يسمى كل منهما محلة، وتبعا لهذا النظام المحكم كونت كل منها لنفسها نظاما شبه مستقل له زواياه القرآنية[9] ومساجده التي تعتبر في نفس الوقت مدارس فقهية، وتقتصر مهمة المدارس القرآنية على تحفيظ القرآن الكريم وبعض المتون الفقهية واللغوية، وبعض الأدعية والصلوات النبوية، ولا يهتم فقهاؤها بشرح شيء من ذلك، أما المدارس فهي تتمثل في المساجد سواء منها الجمعية أو غيرها[10]، وقد كان لها الفضل الأول في مواكبة مسيرة العلم في هذه الديار حيث أخرجت لنا من سنذكرهم في هذه العجالة وغيرهم سابقا أو لاحقا، وبما أن الشيخ عبد الله أبوبكر هو أبرز شخصية علمية عرفناها في غدامس حتى الآن نفتتح به هذا المقال.

هو أبو محمد عبد الله بن أبي بكر...[11] وحتى لانقع في التكرار الممل فسنكتفي هنا ببعض جوانب من حياته ونشاطه... كانت النوازل[12] والأسئلة ترد عليه من المواطن البعيدة ويجيب عنها أحسن جواب، وكاتبه القضاة والعلماء في مسائل كثيرة ويرجعون لفتواه ويقنعون بجوابه، وكان ممن جمع الله له بين العلم والعمل والمال والولد والدين والدنيا.

قيد بخط يده كثيرا من القضايا والأحكام مما يرد عليه، من ذلك قوله: (هنا مسألة تنزل عندنا كثيرا في بلدنا غدامس، وهي اذا عزمت القوافل تريد السفر للقبلة أي غات أو فزان أو للغرب ونحوه، فيقوم أناس

آخرون يريدون السفر لدرج، أو للوطن فيقولون لهم نعطوكم عهودا ومواثيق ونحلف لكم الا نخبر بكم أحدا، فلا تطمئن نفوسهم بايمانهم فهل لهم منعهم من السفر، قال وهو الظاهر من كلام سحنون وابنه، وفي الباب العاشر ومائة من جهاد النوادر اذا جاء للعسكر ببلاد الحرب حربي بأمان أورسول فرأيا عورة أوخيف أن يرياها فليس للأمام حبسهما، بعد انقضاء ما دخلا فيه، ثم قال ان كان اصلاح العورة الى قريب فعله وان كان بعيدا فلا... وقال الشيخ عبد الله واذا قلنا لهم امساكهم ومنعهم من السفر حتى تأمن القوافل فهل عليهم نفقتهم ونفقة دوابهم في مدة الحبس وهو الذي يوخذ من آخر كلام ابن سحنون أو ليس عليهم ذلك، وهو ما جرت عليه العادة في غدامس، والله أعلم[13] ثم قال هناك مسألة أخرى قاس بعض العلماء على هذه المسألة ما اذا طلب متغلب مثل باشوات الوقت وقياد الزمان من أهل بلد ما لا مثل المجبي واللزمة وامتنع أهل البلد من دفع ذلك وخافوا منهم أن يبعثوا لهم محلة أو جيشا وقام أهل البلد وأراد السفر للتجارة ومنعهم الباقون من السفر، قال: الظاهر أنهم يمنعون من السفر شرعا قياسا على مسألة ابن سحنون المتقدمة، والجامع بين المسألتين المنع من السفر للخوف على المسلمين فيها، والله أعلم ما قاله بلسانه وكتبه ببنانه الفقير الحقير عبد الله بن أبي بكر بن بلقاسم الغدامسي[14].

قال الشيخ محمد بن محمد بن موسى بن بلقاسم الغدامسي من خطه نقلت ـ يقصد الشيخ عبد الله ـ وانظر حكم ما اذا اتفق أكثر أهل البلد على أن يدفعوا ذلك المجبي أو اللزمة للقايد المذكور أو الباشا وامتنع بعض الناس من ذلك هل يجبروا بالشرع على دفع ذلك لأجل الخوف المذكور أو لا يجبروا والله تعالى أعلم، ويقول الشيخ محمد المذكور ووجدت بخطه على قول الشيخ خليل في باب الصيد بسلاح ما نصه: اعلم أنه قد كثر السؤال عما يموت بالرصاص هل يؤكل أم لا... ثم قال الشيخ عبد الله وعقب ذلك وقريب من قوله وما جرا مجراها ما نقله الفيشي في حاشيته على المختصر... واذ عهد هذا فأعلم أنه يشترط في ذلك ما يشترط في غيره من النية وعدم التفريط في الزكاة وأن لا يوغر[15] الالة التي يذبح بها، ويسمى عند ارادة الرمي وغير ذلك مما يشترط في الصيد بالكلاب وسائر الجوارح... وهنا تنبه انه لا يشترط في صيد السلاح ومنه الرصاص ما يشترط في صيد السباع والجوارح، وهو أنه لا يؤكل الا ما ار... عليه الجارح، أما اذا أرسله شيء وعقر غيره فلا يؤكل، وأما هنا فانه اذا تعدد مصيده أي الرصاص بأن ضرب شاتان أو ثلاثة من البقر الوحشي مثلا أكل الجميع اتفاقا، ثم قال انما أطلنا الكلام هنا لعموم البلوى...

ووجد بخط يده من المسائل المفيدة والنوازل الغريبة ما لو جمع لكان تأليفا مستقلا يغني عن كثير من كتب الأحكام اقتصرنا على هذا القدر اليسير من ذلك..)

وقد أورد صاحب تذكير الناس الاجازة التي حصل عليها من الشيخ محمد البكري بن عبد الكريم التواتي... الى أن قال: وقد أجزت جميع ما سأذكره من جميع الاسناد ويتصل اذننا بها بآخر المكتوب حسبما التقطته من فهرست الوالد ووالديه وولده العلامة طراز المعقول والمنقول الحافظ المتقن أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد ابن علي الوقروتي الدار، التمنطيتي أصلا، الاصباحي نسبا، أجزت جميع ما ذكره من ذلك وجميع ما صحت لدي روايته عن سائر شيوخي على حسب ما جرا عليه عمل سلفنا المتقدمين، وأئمتنا الماضين، للسيد الفقيه الوجيه النبيل سيدي عبد الله بن أبي بكر الغدامسي، وأذنت له الاذن التام المطلق العام في رواية جميع ما يجوز لي وعني روايته من مقروء ومسموع، ومؤلف ومجموع... محمد البكري بن عبد الكريم بن محمد بن أبي محمد بن أحمد بن ميمون بن عمر بن محمد التواتي دارا، المريني نسبا، حدثني... وذكر الكتب الآتية مع الاسناد الصحيح لمشائخها: صحيح البخاري وكتاب الشفاء، وصحيح مسلم بن الحجاج، وكتاب البردة للشرف البوصير (هكذا) وقصيدة الفرج لأبي الفضل يوسف ابن محمد الأنصاري المعروف بأبن النحوي، ومختصر الشيخ خليل، وبه انتهت الاجازة[16].

كان أبيض اللون مشربا بحمرة، جميل الصورة، طويل القامة، وعظيم الهامة، حسن الخلق، لين الجانب، فصيحا عاقلا عفيفا متوضعا، يلبس اللباس النظيف الفاخر ويستعمل أنواع الطيب الفاخر، ويتعمم ويتلثم، ويستعمل الرفاهية في مأكله وملبسه وأموره كلها متقفا في جميع ذلك في حدود الشريعة المرضية... من رآه بديهة ظن أنه من أهل الدنيا ومن خالطه أو جالسه علم علما يقينا انه من عباد الله الصالحين... وكان مهابا شجاعا مطاعا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وضع الله له القبول التام عند الخاص والعام، تكاتبه الملوك والوزراء والعلماء ومشائخ العرب[17]، لم يتصف بأوصافه وأخلاقه في زمنه الا القليل النادر، يوصف بالحلم والعفو يكافيء المسيء بالاحسان قد قصد بالأذاء كثيرا حتى أن بعضهم حاول قتله مرارا ونجاه الله تعالى.

وكان زاهدا عفيفاً ورعا، عالي الهمة، اجتمع عنده من متاع الدنيا ونعيمها ما لم يجتمع عند أحد من أهل بلده في ذلك الوقت فلم يشغل بها ولا مال قلبه اليها ولا شغلته عن عبادة ربه... واذا كان الزهد في القلب فلا يضر المال اذا كان من وجه حلال، يوصف بالكرم والجود، يتفقد الأرامل والأيتام والجيران والمرضى يواسيهم ويبدأهم بالعطاء، ويفرح بالسائل ويضحك في وجهه، وكان اذا سمع بانسان عريانا يأخذ ثوبا وكساء وما يليق بذلك الانسان من الكسوة فيقصد بيته ليلا متخفيا، فيدق عليه الباب دقا خفيفا فاذا فتح الباب ألقى اليه ذلك الثوب ويمر سريعا لألا يعرف... يطلع وقت الضحى الى سطح منزله فيجتمع عليه دجاج الجيران وغيرهم من أماكن بعيدة فيأمر بأن يلقى اليهن الحبوب فيلتقطنه فاذا فرغ رجعت كل واحدة الى مكانها الى الغد في مثل هذا الوقت. وهكذا كل يوم، واذا أغار عدو على البلد، أو جاءت سرية من العرب ممن يخشى شره ارسل اليهم من يأتي بهم فيطعمهم ويكسيهم ويعطيهم ما يرضون به وينصرفون راضين، ويأمن أهل البلد شرهم ومكرهم، أعتق 19 رقيقا لوجه الله تعالى وأوقف الكثير من العقار على المصلحة العامة...

سلوكه اليومي:

كان يقوم آخر الليل ويذهب الى الجامع ويشتغل بالعبادة حتى آذان الفجر، وبعد أن يصلي بالناس الصبح، يجلس لتعليم العلم أو للذكر حتى ترتفع الشمس فيعود لداره فيجتمع بأولاده وزواره فيتفقد أحوالهم، ثم يخرج للمزارع متنزها ومتفقدا ثم يرجع سريعا، فيقضي بقية اليوم في القراءة والكتابة أو يقضي بين الناس، أو بعض ضرورياته الدنيوية الى أن يقرب الظهر فينهض للجامع فيشتغل بالتدريس او العبادة الى أن يصلي الظهر والعصر ويرجع لداره، وكذلك المغرب والعشاء، وهذه حالته في جميع الفصول، وكان مجاب الدعوة، لا يخالط أرباب الدنيا ولا يجالسهم الا لفائدة أو ضرورة: يعتني بالزرع وغرس النخيل والشجر ويتعب نفسه كثيرا في مصالح المسلمين، وبالجملة فان هذا الرجل في عصره كان يمثل القاعدة العريضة لغدامس المستقلة اذ لا سلطان عليها اذ ذاك لأحد.

2) ـ أبو العباس أحمد بن عبد الله[18]

نكتفي بمقتطفات من قصيدته التي قالها يمدح كتاب الشفاء للقاضي عياض بن موسى ووالده عبد الله:

يا طالب العلم مشغوفا به كلفا
يا سائل الناس أو يستفهم الصحفا
فاسلك طريقهم واتبع فريقهم
واعرف حقوقهم ما ضل من عرفا
أبدا عياض رياضا من محاسنه
فتجلى طرفا وتجتني تحفا
فدونك المسك من رياه منتشقا
والدر ملتقطا والغيث مرتشفا
والشمس مجتليا والنجم مقتديا
والبدر مهتديا والبحر مغترفا
لله در عياض من امام هدى
سما به الغرب فخرا واعتلى شرفا
وأثبت الفضل للمستاخرين فقد
أتا أخيرا بما لم يأت من سلفا

شخصيات علمية بغدامس

وأغفر الاهي لمن كنا بحضرته
شيخ الشيوخ وبحر قدره عرفا
العالم العامل المحمود سيرته
غوث الأنام وشيخ الوقت والخلفا
السيد الخير عبد الله سيدنا
من بالمحاسن والخيرات قد وصفا

وله قصيدة أخرى مدح فيها القاضي عباض وذكر فيها بعض مشائخه البراكلة وعلماء السودان ضاع أكثرها في جملة ما ضاع من تذكير الناس.

3) أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله.

ولد بغدامس سنة 1086هـ درس عن جماعة علماء غدامس منهم والده عبد الله وأخيه أحمد بن عبد الله، وفي تونس درس عن الشيخ أحمد بن الحسن الشريف، سافر الى فاس ودرس عن بعض علمائها، واجتمع بسلطان فاس مولاي اسماعيل، وفي أقدس قرأ عن الشيخ احماد البركولي وولد درفن، وفي رحلته الى الحج اتصل بعلماء الأزهر كالشيخ ابراهيم الفيومي. وهذه الحياة العلمية الحافلة مكنته أن يكون عالما بالفقه والتوحيد واللغة والأدب، وكان الى جانب اشتغاله بالعلم يمارس التجارة حتى أصبح من أغنى الأغنياء متصفا بالكرم والجود والسخاء. لما عزم على الحج سنة 1124هـ نادى مناديه الا من أراد الحج فليتوكل على الله من غير زاد ولا راحلة، وسافر معه الكثيرون الى الحج على نفقته.

جاء في تذكير الناسي أنه ألف عدة قصائد، منها القصيدة لامية احتوت على 120 بيتا ذكر فيها جماعة من مشائخ غدامس، الى جانب قصائد أخرى في مدح النبي ﷺ، وأشعار جمه تدل على سعة اطلاعه، كما كان جماعا للكتب، وقد مدحه كثير من العلماء لفضله وكرمه وتقواه، ومن أحسن ما مدح به قصيدة للشيخ محمد بن محمود الفلاني التي يقول فيها:

عليك بهذا الشاب ان كنت ذا أرب
فزره ولازمه لتحظى بما تحب
من الدين والانصاف والعلم والتقى
ونصح عباد الله حقا كما وجب
لقد كان من أهل الوفاء ذوي العلى
أولي البسط والعرفان والمجد والرتب

الى أن يقول:

فراياة فخر المجد خافضة له
ووابل علم الدين منه جرا وصـ
وهل نظرت عيناك خلا يفوقه
الى ذروة الايجاد مد له السبب
فوالله ربي ما رأيت شبيهه
ولا هبت كل القرائح ما وهب
وان شئته يا صاح فافهمه باسمه
فعبد الرحمن معين ذوي الكرب
سليل لعبد الله بن أبي بكر
وموطنه بلد الغدامس والطرب

ان من قيل فيه هذا القول من عالم مثل محمد الفلاني لا شك أنه في مستوى يقل فيه نظيره في عصره ببلدته، غير أنه لم يبلغني أن احدا انتفع بعمله، فلعلنا نعثر مستقبلا عما يكشف اللثام عنه أكثر، وربما اشتغاله بالتجارة حالت دون ذلك.

سافر الى المغرب للمرة الثانية، وفي طريق عودته الى غدامس جالبا معه قافلة كبيرة من البضاعة، منها حمل بعير من الفضة، وفي مكان يسمى تبكورين بأرض توات بالجزائر خانه قائدها المسمى (الصفار) والذي كان يتظاهر بصداقته ولحقه بذلك المكان ومعه جماعة من القراوة وأخذوا قافلته وقتلوه وهو محرم بالصلاة وذلك سنة 1132هـ.

4) أبوعبد الله محمد الزاهد بن عبد الله:

هو الجد الأعلى لمؤلف تذكير الناسي من جهة الأم، ولد بغدامس سنة 1076هـ درس عن أبيه وأخيه أحمد، ونال حظا من الفقه والحديث واللغة، وكان يغلب عليه قراءة السير والأخبار، حتى أن السيرة الكلاعية لا تفارقه غالبا.

رحل الى الحج وأخذ عن بعض مشائخ الحرمين

ومصر، كما سافر الى تونس وأقدز وأخذ من علمائها، كان متواضعا حسن الخلق والحياء الزائد، حتى كان حياؤه سبب قتله، وذلك أنه سافر الى تونس ولما قفل منها راجعا لغدامس وكان في مرحلة من القيروان بات هو وأصحابه، فلما كان الليل ونام الناس قام لقضاء حاجة الإنسان وكان من عادته أن يبتعد كثيرا لشدة حيائه، فلما كر راجعا رآه مغربي كان مع قافلته فظن أنه لص أو سارق فرماه ببندقية من غير أن يكلمه فسقط وهو يقول: من أنت يا من ابتمت بناتي فمات من ساعته، وكان قد أوصى أخاه علي قبل ذلك بقوله: اذا أنا مت في هذه الأرض فادفنوني بالقيروان، فعادوا به الى القيروان ودفنوه هناك وذلك سنة 1127هـ.

5) بن يونس الكبير:

هو الشيخ الورع الزاهد محمد بن احمد بن عبد الله بن محمد بن يونس الدراري الغدامسي، لقب بالكبير تمييزا له عن ابنه الشيخ محمد بن يونس الصغير، ولد بغدامس وعاش بها أوائل القرن الثاني عشر الهجري، أجمع الرواة أن له بعض المؤلفات، تنسب اليه الأرجوزة النونية المسماة رجال غدامس التي مطلعها:

سميت باسم الله الرحمن به يستعان

في الحركـــــات والاسكـــــان

كما تنسب اليه بعض المؤلفات، الا أن شخصيته تداخلت مع شخصية ابنه محمد المذكور ولم يتضح نتاج هذا من ذاك، تولى التدريس والخطبة بجامع العتيق، كما تولى القضاء بغدامس.

6) أبو محمد الحسن بن عمر السيناوني:

تبعد مدينة سيناون عن غدامس الى الشمال الشرقي 210كم، وتعتبر منذ القدم ضمن منطقة غدامس، بل ان غدامس وجد بها منذ قرون عشرات العائلات هاجرت اليها من سيناون، ولهذا فعلاقة غدامس بسيناون لا توازيها أية علاقة اسرية له بسواها من البلدان بفضل التداخل واستمرارية التعايش. كما أن هذه البلدة تنسب الى العلم منذ القديم، اذ نسب اليها بابا أحمد بن منصور الشرفي السنّاوني[19] وحتى اعطي هذه المدينة قليلا مما تستحق رأيت أن أقدم هذا الرجل للقراء ضمن من ذكر من بعض شيوخ غدامس.

هو الحسن بن عمر بن عبد الله بن يوسف الشريف السيناوني ويتصل نسبه بعلي ابن الحسين ولد بسيناون سنة 1290هـ 1871م[20]ووالدته اسمها مبروكة شلك شلك[21] سافر صحبة والدة الى تونس 18 سنة حيث انتسب الى جامع الزيتونة سنة 1308هـ 1889م وحصل على شهادة التطويع سنة 1313هـ 1895م وأنهى دراسته العليا سنة 1338هـ 1920م، ومن مشائخه بالزيتونة كل من: محمد الطاهر النيفر، ومحمد النخلي، ومحمد الشاذلي بن مراد، وعمار بن صميدة، وابراهيم المارغني.

حياته العملية:

حالما حصل على شهادة التطويع 1895م تولى وظيفة العدالة بتونس وبقي يدرس ويعمل، وبعد تخرجه أصبح مدرسا للقراءات بجامع الزيتونة. ومن طلبته الشيخ الفاضل بن الطاهر بن عاشور، وعبد الحميد بن باديس الزعيم الجزائري المعروف ومحمد أبو شريبة، وأحمد بن البشير مالك الغدامسي، وفرج عباس، والمختار بن محمود وأحمد المهدي النيفر، ومحمد الهدى بن القاضي وغيرهم.

مؤلفاته:

لم يقتصر نشاطه على التدريس فقط بل له باعه الطويل في مجال التأليف، حيث ألف عدة مؤلفات، وهي:

1 ـ الكواكب الدرية في اعراب الشاطبية (مطبوع)
2 ـ التحرير المفيد في تحقيق العبادات وتوجيه القراءات المنظومة في القصيد
3 ـ شرح الفية ابن مالك
4 ـ الأصل الجامع لايضاح الدرر المنظومة في سلك جمع الجوامع
5 ـ منح الفتاح في فتح أبواب تلخيص المفتاح (مطبوع)
6 ـ مواهب الجليل في تطبيق ما جرى به القضاء

شخصيات علمية بغدامس

والعمل على معاملات مختصر الفتوي لخليل.

وبالاضافة الى هذا له دروس تطوعية يلقيها في بعض مساجد تونس، بل وفي منزله، وصفه بعض علماء الجزائر بأنه أقوى العلماء بيانا في عصره، وأمير حكماء عصره وأجودهم بالحكمة في زمانه. كان الشيخ الفاضل رحمه الله بوصية من والده يقف أمام الباب الذي يدخل منه لجامع الزيتونة ليحمل له حذاءه.

سأله يوما بعض أمراء البيت الحسيني ومنهم المنصف فيم النجاة، فقال: (النجاة في أداء الفرائض ورد المظالم والانابة الى الله تعالى وأن تكونوا مشفقين على الرعية يوم تنالوا العلامة، واعرفوا جود الرحمن حيث أعطاكم هذه المناصب الجليلة، واحذروا الظلم والافراط فهما أساس خراب الدولة).

وكان كثيرا ما يغمى عليه في درسه من كثرة التدبر في آي القرآن الكريم وأسراره الخفية، وقد أكد لي هذه الحقيقة تلميذه الشيخ أحمد مالك.

انتقل الى رحمة الله تعالى يوم الأحد 10 ربيع الاول سنة 1353هـ الموافق 17 يوليه 1934م ودفن بمقبرة الجلاز بتونس[22].

أكتفي بهذا القدر اليسير في هذا المقال القصير الذي لم يشر الا الى القليل مما يجب أن يحظى بالبحث والدراسة في هذا الجانب، وأنبه الى أن مصدري الوحيد عن الشيخ عبد الله وأبنائه أحمد وعبد الرحمن ومحمد الزاهد هو مخطوط تذكير الناسي الذي نقلت منه حرفيا.

ان هذا المخطوط الذي يكشف عن جوانب مهمة واضحة عن حياة هذا البلد العلمية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية لجدير بالتحقيق العلمي الجاد، والأمل يحدونا في الحصول على نسخة ثالثة كاملة أو قد تكمل النسختين الناقصتين الموجودتين الآن، وبهذا تسنح الفرصة لمن يريد القيام بهذا العمل المفيد.

وللعلم فانني بعد جهد جهيد تيسر لي جمع بعض معلومات عمن توصلت الى معرفته من أعلام هذا البلد، ولعل الله يمن بطبعه واصداره عن قريب، والله أسأل أن يلهمنا الصواب والهداية الى سواء السبيل.

1 ـ ذكر فتح غدامس ثلاث مرات: سنة 24هـ بسرية لعقبة بن نافع لما كان بزويلة أو برقة، وسنة 42 في جولة عقبة الصحراوية ما بين 41 و43 على قول ابن الأثير، وسنة 49 لما انتدب عقبة لفتح افريقية (تونس) واتخذ طريقه اليها من جنوب جبل نفوسة وأرسل خيلا الى غدامس وفتحها. الفتح العربي في ليبيا، طاهر أحمد الزاوي.

2 ـ انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا، طاهر أحمد الزاوي صفحتي 106 و107.

3 ـ هو أبو الفضل العباس بن محمد الصواف الغدامسي، ولد بغدامس وتوفي بالمنستير، هاجر من غدامس الى تونس سنة 286، وحج سنة 284 وعاد إلى المنستير اشتهر بالزهد والورع، وصف بانه اجتمع فيه ما تفرق في غيره، كان رحمه الله تعالى من أرق الناس قلبا وأغزرهم دمعة، سليم القلب، لما احتضر أغمي عليه، ولما أفاق قال أين أنا فقيل له في بيتك، فقال ليس هذا بيتي، هذا بيت من فوقه غرف، ثم أغمي عليه ثم أفاق وهو يقول لمثل هذا فاليعمل العاملون، وتوفي يوم الجمعة 12 ربيع الأول سنة 309هـ وعمره 96 سنة، ويفهم من هذا أنه درس بغدامس، وسافر منها لأداء فريضة الحج وعمره 71 سنة، وبعد عودته نزل بالمنستير وبقي بها 25 سنة. انظر أعلام ليبيا، طاهر أحمد الزاوي صفحة 186.

4 ـ عنوانه فتق الأزهار من الكشف والبيان لآي القرآن العظيم لأبي اسحاق بن أحمد بن ابراهيم الثعلبي، وهو اختصار للكشف والبيان المذكور، واسم المؤلف عبد السلام بن عبد الرحمن.

5 ـ عنوانه تذكير الناسي وتليين القلب القاسي في ذكر شيء من مناقب الشيخ سيدي عبد الله أبو بكر الغدامسي، ولضياع الورقة الأولى والأخيرة من المخطوط لم يعرف اسم المؤلف، ولكنه أشار فيه انه حفيد الشيخ عبد الله للأم، وأنه لم يدركه، لذا فيرجح ان تاريخ التأليف سيكون أواسط أو أواخر القرن الثاني، لأن الشيخ عبد الله توفي سنة 1121هـ.

6 ـ انظر الصفحة 83 من مجلة البحوث التاريخية لمركز جهاد الليبيين، السنة الرابعة العدد الأول يناير 1982م.

7 ـ توجد احداهما في حوزة الأخ أحمد محمد أبوالقاسم، والثانية في حوزة الأستاذ عمر محمد بناصر.

8 ـ عنوان المخطوط ارشاد خالقي ومصوري لشرح عقيدة الامام المقري، توجد منه صورتان احداهما على ملك الأخ أحمد الامام، والثانية يملكها الأخ الطيب عثمان

البخاري، يذكر فيه مؤلفه أن له تأليف في التفسير، وآخر عنوانه الكواكب الدرية في شرح القصيدة السيوطية، وله كتاب المنح الوافرة، انظر مجلة البحوث المذكورة في رقم 6 بهذا الهامش.

9 ـ يوجد بمحلة وازيت الزوايا القرآنية الآتية: زاوية الساباط، تفرفرة، تنزين، جرسان. وبمحلة وليد: أمنا زجاجة، باعلي، تمقدلت، سديجة، سيدي عبد القادر، الظهرة، مازيغ، مولاي الطيب وبعضها مساجد صغيرة استعملت كزوايا.

10 ـ أسس مسجد العتيق سنة 52 هجرية، وتاريخ تأسيسه كان مكتوبا في احدى جوانبه بقرب المحراب وفقد اثناء اعادة بنائه بعد الغارة الجوية التي سقطت سنة 1942م علمت هذا من الشيخ عبد الله البخاري التني رحمه الله.

كان يسمى جامع ورنوغن، وهو يقع في أبرز مكان بالمدينة ويتوسط المحلتين، بابه الرئيسي يفتح على شارع درار، وله باب يفتح على الشمال لشارع تصكو، وآخر من جهة الجنوب يفتح على سوق القادوس القريب لمحلة وازيت، وهو ثاني مسجد أسس بغدامس اذ أن مسجد عقبة كما يقال اسس قبل هذا ولوجوده خارج السور لا يصلون فيه الا العيدين ويقيمون فيه بعض الحفلات الدينية.

المسجد الثاني هو مسجد يونس، اسس في القرن الثامن الهجري ويقع جنوب مسجد العتيق، تبرعت بأرضه أمرأة من بني يونس الفضالات واشترطت أن يكون امامه من أشراف جرسان، والقيمين عليه من تفرفرة.

المسجد الثالث هو مسجد عمران الفقيه، الجد الأعلى لأشراف شارع جرسان.

والرابع هو مسجد تندرين بشارع مازيغ،، وتندرين أصلها (اند تندغيري) وهي نوع من القطع الذهبية تم التبرع بها لبناء المسجد.

11 ـ انظر الهامش رقم 6 من هذه المقالة.

12 ـ النوازل هي القضايا.

13 ـ يقصد بأنس آخرين من لاينتمي للبلد، وقله هذا ما جرت به العادة... يوضح أنهم كانوا يمارسون هذا المنع في مثل هذه الحالات.

14 ـ يبدو لي ان المسألتين متناقضتين فالباشا أو القايد لا يتوقف اعتداؤهما من أجل هذا.

15 ـ يوعر عامية محلية يقصد بها ابعد المدية.

16 ـ هذه الاجازة حوت سلاسل لأسماء كبار العلماء ولوحدها تستحق الدراسة.

17 ـ من المشائخ الذين كاتبوه الشيخ الفاضل العالم أبي القاسم الورفلي يخبره أنه منذ ثمانية أعوام يختم القرآن في كل شهر عشر مرات ويهديه ثوابها. بلغه مرة أن حاكم طرابلس يجهز حملة لغزو غدامس فأرسل الشيخ عبد الله ابراهيم بن عطية السيناوني وأعطاه بعيرا والتزم بنفقة عياله حتى يعود الى مشائخ أولاد عبد الله وكبرائهم بالمحاميد مع هدية فاخرة، فوجده مريضا أرمد العينين، فلما علم بقدومه قام من ساعته وقرأ الكتاب بنفسه وأعطاه الرد السريع الذي خلاصته: (طب نفسا وقر عينا لا يأتيكم من ناحيتنا شيئا تكرهونه أبداً...) وعاد الرسول فوجد أهل البلد الذين لا يعرفون عنه شيئا يبيتون للحملة ويرممون الأسوار، فأخبرهم الشيخ عبد الله بما فعل واطمأنوا بعد ذلك.

18 ـ انظر الهامش رقم 6 من هذه المقالة.

19 ـ معجم البلدان الليبية صفحة 194 / طاهر أحمد الزاوي، وقد ذكر أن سناون جاء ضبطها في (تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان) هكذا بتشديد النون وبدون ياء بينها وبين السين ونسب اليها بابا أحمد... واضيف بدوري ان الاسم يتركب من كلمتين: آسن، آون وتعني صل واطلع، لأنها توجد في رابية يطلع اليها القادم من الشرق طلوعا، هكذا قال لي بعض الطوارق، وهذا يوافق لسانهم.

20 ـ اكد لي ولادته بسيناون ابن اخيه الشيخ أحمد بن محمد بن عمر، بينما ذكر الاستاذ عبد الحميد الدرويشي في محاضرته أنه من مواليد تونس في السنة المذكورة أعلاه، وحتى التحقق من ذلك سألت ابن اخيه عن سنة ولادة عمه فقال لا أعلم، ولكنه سافر من سيناون وعمره 18 سنة، وبهذا فتاريخ الميلاد الذي ذكره الاستاذ الدرويشي صحيح.

21 ـ لم يذكر عبد الحميد الدرويشي اسم والدته، ولذا سألت ابن اخيه الشيخ أحمد هل تعرف اسم والدة عمك، فقال كيف لا أعرفه وهي جدتي أم أبي أني أعرفها شخصيا اسمها مبروكة بنت شكشك. علما بأن هذه العائلة موجودة حتى الآن بغدامس.

22 ـ مصدري عن الشيخ حسن محاضرة ألقاها الأستاذ عبد الحميد الدرويشي بتونس لم يرد بها تاريخ الالقاء ولا مكانه، بالاضافة الى بعض التصحيحات من ابن أخيه الشيخ أحمد بن محمد بن عمر السيناوني.